

الإنعطاف الإبستمولوجي لمدرسة الحوليات: من سرد الأحداث إلى كشف البنى في كتابة التاريخ

*The Epistemological Turn: From Narrating Events to Deconstructing Structures in Historical Writing*ط.د. الهام طباشي^{1*}، أ.د. حموم لخضر²¹ مخبر الفلسفة و العلوم الإنسانية ، جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم (الجزائر)

ilham.tabachi.etu@univ-mosta.dz

² مخبر الفلسفة و العلوم الإنسانية ، جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم (الجزائر)

lakhdar.hamoum@univ-mosta.dz

تاريخ النشر: 2026/04/12

تاريخ القبول: 2026/02/15

تاريخ الاستلام: 2025/10/26

ملخص: لقد أحدثت مدرسة الحوليات الفرنسية انعطافا في مسار الكتابة التاريخية حيث حولت التأريخ من سرد الأحداث إلى تحليل البنى و انتقلت من النموذج التقليدي المعتمد على رواية الأحداث السياسية والعسكرية إلى كشف البنى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي شكلت المجتمع. يسعى هذا المقال إلى تحليل هذا الانعطاف الذي مثل ثورة في إبستمولوجيا التاريخ من خلال تحليل تجاوز هذه المدرسة للتاريخ التقليدي وأسسها الإبستمولوجية وأدواتها المنهجية وتطبيقاتها العملية وتأثيرها على إعادة تعريف الكتابة التاريخية المعاصرة، وتوصلت الدراسة إلى أن مدرسة الحوليات غيرت موضوع التاريخ من دراسة الحدث إلى دراسة البنيات ومن الزمن القصير إلى الزمن طويل الأمد، كما تم الكشف عن نجاح أدوات الحوليات المنهجية تطبيقيا.

كلمات مفتاحية: مدرسة الحوليات، التاريخ الجديد، الانعطاف الإبستمولوجي، الزمن الطويل، التاريخ الشامل.

Abstract: The French Annales School brought about a paradigm shift in the course of historical writing by transforming historiography from the narration of events to the analysis of structures. It moved beyond the traditional model centered on recounting political and military events to uncovering the social, economic, and cultural structures that shaped societies.

This article aims to analyze this shift, which represented a revolution in the epistemology of history, by examining how the Annales School transcended traditional historiography, its epistemological foundations, its methodological tools, its practical applications, and its impact on redefining contemporary historical writing. The study concludes that the Annales School transformed the subject of history from the study of events to the study of structures and from short-term to long-term time. It also reveals the successful application of the School's methodological tools.

Keywords: Annales School; New History; Epistemological Turn; Longue Durée; Total History.

1. مقدمة:

تعتبر مدرسة الحوليات من أهم المحطات الثورية في كتابة التاريخ، حيث أحدثت انعطافا ابستمولوجيا مهما في الكتابة التاريخية غير مسار التاريخ من التاريخ التقليدي إلى التاريخ الجديد، لم تكن هذه المدرسة مجرد تجاوز منهجي فحسب بل هي تغيير في النموذج التقليدي للتاريخ حيث أعادت تعريف التاريخ وموضوعه ومناهجه وأسسها المعرفية، بعد نقد جذري لأسس التاريخ التقليدي الذي كان سائدا، حدث هذا الانعطاف كرد فعل على أزمة التاريخ الوضعي القائم على سرد الأحداث السياسية والاعتماد على المصادر والوثائق الرسمية.

إن أزمة التاريخ التقليدي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين والتأثيرات الفكرية والمنهجية للعلوم الاجتماعية على التاريخ وتأثيرات الحرب العالمية الأولى التي أعادت تشكيل الوعي التاريخي شكلت سياقاً تاريخياً وفكرياً لظهور مدرسة الحوليات.

لقد بدأ هذا الانتقال مع رواد مدرسة الحوليات مارك بلوخ ولوسيان فيفر، حيث بينوا حدود التاريخ التقليدي في تفسير مجتمعات الماضي، حيث يروي هذا التاريخ انتصارات الملوك ومهمش يوميات الفلاحين يسجل أحداث الحروب ويغفل الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، فكان نقد مدرسة الحوليات موجهاً إلى أدوات هذا التاريخ من وثائق رسمية باعتبارها أداة سلطة وليست أداة معرفة، فأتت بأدوات منهجية جديدة كمفهوم الزمن الطويل والتاريخ الشامل والتقنيات الكمية مع تعدد وتنوع في المصادر والوثائق.

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل هذا الانعطاف في مسار الكتابة التاريخية من سرد الأحداث إلى الحفر في طبقات الزمن وكشف البنى الاجتماعية والاقتصادية والذهنية من خلال دراسة القطيعة مع النموذج التقليدي وإرساءها لأدوات منهجية جديدة والكشف عن مدى نجاح تطبيق مفاهيم الزمن الطويل والتاريخ الكلي والأدوات المنهجية الجديدة على بعض نماذج البحوث التاريخية.

وبناء على هذا ستكون إشكالية الدراسة التالية: كيف شكل الانعطاف الابستمولوجي لمدرسة الحوليات قطيعة مع التاريخ التقليدي؟ وما هي الأدوات المنهجية التي اعتمدها؟ وما هي التجليات التطبيقية لهذه الأدوات؟

لتحليل هذه الإشكالية والإجابة عليها قسمنا المقال وفق العناصر التالية:

- نقد النموذج التقليدي من منظور الحوليات، الأسس الإبستمولوجية لثورة الحوليات

- الأدوات المنهجية لمدرسة الحوليات: من النقد النظري إلى التطبيق العملي

- نماذج تطبيقية في التاريخ الحولياتي: كيف طُبِّقت أدوات الحوليات؟

- إستيمولوجيا الكتابة التاريخية بعد الانعطاف: التغير في طبيعة المعرفة ودور المؤرخ

2. نقد النموذج التقليدي من منظور الحوليات ,

1.2 نقد التاريخ السياسي (السردى):

قدمت مدرسة الحوليات تحليلا نقديا للتاريخ التقليدي وقد مهد هذا النقد لانعطاف إستيمولوجي

في الكتابة التاريخية

سعى مؤسسو مدرسة الحوليات لوسيان فيفر ومارك بلوخ إلى نقد التاريخ السردى من خلال تفكيك مركزية الحدث السياسي في التاريخ التقليدي الذي اختزل التاريخ كله في سرد الأحداث السياسية و الحروب والمعارك وسير العظماء و القادة والمعاهدات والقرارات الرسمية, لذلك هاجم رواد مدرسة الحوليات التاريخ السياسي معتبرين إن هذا النوع من الكتابة التاريخية يغيب التحولات العميقة ويعكس رؤية النخب الحاكمة فقط و يهمل التاريخ الحقيقي ممثلا في البنى الاجتماعية والاقتصادية و العقلية الجماعية, "إن هذا التاريخ السياسي كان في الوقت نفسه تاريخ وقائع وتاريخ أحداث, فهو عبارة عن واجهة يتخفى وراءها الدور الحقيقي للتاريخ الذي تدور أحداثه في الكواليس وفي البنى الخفية التي يتوجب الكشف عنها وتحليلها وتفسيرها"¹.

حسب مارك بلوخ ومؤسسي الحوليات الحروب والمعارك والأحداث السياسية ليست أسبابا تاريخية حقيقية بل هي فقط نتائج لتحولات بطيئة متراكمة وعميقة تتمثل في تغيرات في البنى الاقتصادية والاجتماعية والذهنية وكمثال تطبيقي إذا كانت الثورة الفرنسية 1789 حدثا تاريخيا سياسيا مهما فهو ليس حدثا مفاجئا بل نتيجة لتغيرات بنيوية عميقة في المجتمع الفرنسي تمثلت في تغيرات ذهنية كانتشار أفكار التنوير وتغيرات اقتصادية تمثلت في أزمات زراعية متراكمة وهذه التغيرات البطيئة هي الأسباب الحقيقية التي يجب الكشف عنها بدلا من الأحداث التي تطفو على السطح فقط لذلك سعت الحوليات لهدم أسطورة الأحداث الكبرى.

إلى جانب هدم فكرة تاريخ الأحداث السياسية ركز أيضا رواد الحوليات على ما يعرف بـ "عبادة البطل الفرد" ويقصد به التركيز على الشخصيات البارزة والسياسية في كتابة التاريخ كأن التاريخ يصنعه القائد وهذا يحول التاريخ إلى مسرحية لها أبطال أما المجتمع فهو مجرد جمهور لكن الحقيقة حسب بروديل ورواد الحوليات هي أن التاريخ يصنعه من لا نجده مذكورا في أي رواية تاريخية "لقد رفضت مدرسة

الحوليات البيوغرافيا مثلما رفضت الحدث، واعتبرتها إحدى الأصنام التاريخية غير المفيدة في فهم معنى التاريخ².

لقد شمل التحليل النقدي للتاريخ التقليدي أيضا مفهوم الزمن التاريخي باعتباره زمنا خطيا للأحداث لذلك اتهم رواد مدرسة الحوليات التاريخ التقليدي بتسطيح الزمن وهذا يتضمن عدة مشكلات كالتركيز على الأحداث البارزة والرنانة وهذا من نتائج مفهوم الزمن القصير الذي يجعل الأحداث منفصلة عن سياقها وبنية تشكيلها، فالتركيز على الأحداث كسقوط غرناطة أو الثورة الفرنسية كأحداث فاصلة وفصلها عن سياقاتها يغيب الأسباب العميقة ويوقعنا في مشكل السببية المباشرة و اعتبار الأحداث كنتائج حتمية للأحداث السابقة لها وهذا تجاهل للتراكم البطيء كالتغيرات البيئية والاقتصادية والذهنية التي شكلت هذه الأحداث، لهذا قدمت مدرسة الحوليات نقدا جذريا لاختزال التاريخ في الحدث ولخطيته وتتابعه السببي وانفصال الماضي التاريخي عن سياقه

لكن هذا النقد الجذري للزمن الخطي لم يكن مجرد هدم وتحليل نقدي عند رواد الحوليات بل قدموا بديلا لمفهوم الزمن الخطي وهو الزمن الطويل أو المتعدد الذي قدمه بروديل كحل ابستمولوجي لمشكلة الزمن الخطي فقسم الزمن التاريخي إلى ثلاثة أبعاد الزمن الطويل يمتد لقرون أو آلاف السنين "تاريخ شبه راكد، وهو تاريخ الإنسان في علاقته بالوسط الذي يحيط به"³ والذي نحلل من خلاله التغيرات الجغرافية و المناخية والزمن المتوسط يمتد عقود أو قرون نحلل من خلاله التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والزمن القصير يمتد لسنوات أو أيام نحلل من خلاله الأحداث والتغيرات السياسية ونلاحظ التأثير الابستمولوجي لمفهوم الزمن المتعدد أن التاريخ يصنعه الزمنين الطويل والمتوسط أما الزمن القصير فهو أحداث ظاهرة فقط، "على هذا النحو وصلنا إلى تفكيك التاريخ إلى مستويات متدرجة، أو إلى التمييز بين زمن فردي وزمن اجتماعي، بين الأحداث والظروف و البنى، على السطح من هذه المستويات يطالعنا تاريخ حدثي أو ميكرو- تاريخ داخل دائرة زمن قصير لا يتخطى أعمار الأفراد ووعيمهم"⁴ وبهذا تحولت طبيعة أسئلة التاريخ من مجرد توثيق الأحداث والسؤال من انتصر في المعركة أو متى سقطت دولة إلى التحليل البنوي كيف أثرت أزمت المناخ واقتصاد الدولة وكيف حددت الجغرافيا تغيرات السياسية فالحدث لا يقع فجأة بل عملية تراكمية .

2.2 تفكيك أدوات المعرفة التاريخية التقليدية:

لاكتمال نقد التاريخ التقليدي يجب تفكيك أدوات إنتاجه المعرفية، إذا كان النقد السابق يمس موضوع المعرفة التاريخية أوماذا يكتب التاريخ فانه من الضروري تفكيك أدوات هذه المعرفة وطرح

السؤال كيف يكتب التاريخ وبأي مصادر, بعد إن طرحنا السؤال لماذا بدرس التاريخ المعارك والحروب وليس الأزمات الاقتصادية والمجاعات التي أدت إليها كسؤال يمس موضوع المعرفة نطرح الآن السؤال لماذا نثق في الوثائق الرسمية ووثائق القصور أكثر من يوميات الأطباء والفلاحين التي تتحدث عن الأزمات الاقتصادية والاجتماعية وهذا متعلق بمصادر المعرفة وهنا علاقة وثيقة بين نقد المعرفة التاريخية ونقد وثائقها فكلاهما يكشف عن زيف الكتابة التاريخية

إن الوثائق الرسمية ليست مصادر محايدة تستخدمها السلطة لتبرير سيطرتها بالإضافة إلى ذلك تغيب النسبة الكبيرة من صوت المجتمع مثل الفلاحون والنساء والحرفيون لذلك قدمت مدرسة الحوليات بديلا للوثائق الرسمية المكتوبة بمصادر أخرى كيوميات الفلاحين وعقود الزواج و الأغاني الشعبية وانتقدوا الاعتماد على خطابات الملوك التي تعبر عن صوت النخب بشكل مفرط لأنها تهمش أصوات المجتمع, إذن الوثائق التقليدية تخفي الحياة اليومية للعمال والفلاحين والعامّة ولا تسجل إلا اللحظات السياسية الكبرى وهذا ينتج تاريخا مزيفا مهماشا لفئة كبيرة .

لقد قام النظام التقليدي للمعرفة التاريخية على وهم أن الأحداث السياسية هي التي تحرك التاريخ وإقصاء للبنى التي شكلت التاريخ , ويقوم على السلطة التي تحتكر كتابة التاريخ بوثائقها الرسمية المحدودة التي تنتج معرفة مزيفة ومشوهة بينما لا تكشف الأفئدة عن التاريخ الحقيقي لكن رواد الحوليات خاصة مارك بلوخ أكدوا أنه من الوهم الكبير تصور أن لكل مشكلة تاريخية نوعا واحدا من الوثائق المتخصصة للاستجابة لها بل على العكس, كلما سعى البحث إلى الوصول إلى الحقائق العميقة قلما يحصل على ضوء إلا من الأشعة المتقاطعة لشهادات شديدة التنوع في طبيعتها⁵.

إن الأرشفة ليس مستودع للمعرفة التاريخية فقط بل هو ما يحدد ما يعتبر تاريخا ويقصي مالا يعتبر تاريخا إذن هو أداة إنتاج للمعرفة التاريخية ومن ترتيبه وتحديدده يشكل حقائق تاريخية لذلك كان الأرشفة محل نقد مدرسة الحوليات لأن تحديد ما يسجل في التاريخ وما يهمل هي سياسة إقصاء, فالتاريخ التقليدي يعتبر مصادر النخبة مصادر موثوقة أما الشهادات الشفوية واليوميات فهي غير دقيقة وهوامش فقط وهذا التهميش ينتج معرفة مشوهة لذلك بينت مدرسة الحوليات حدود المصادر التقليدية فالصمت التاريخي عم معظمها وكان ما لم يكتب أهم مما كتب والعديد من الفئات عانت من أرشفة الصمت كالنساء والعبيد والفلاحين بسبب احتكار أدوات التوثيق والأمية المنتشرة التي تمنع من ترك سجلات مكتوبة حتى إذا وجدت وثائق فإنها تختفي مع الزمن عكس وثائق السلطة التي تكون محمية, كما أن لوسيان فيفر يعارض بشدة إقصاء أجزاء من التاريخ بسبب أنها تعتمد على المصادر غير المكتوبة حيث

ربط التاريخ بالكتابة، وكان ذلك في اللحظة التي كانت فيها عصور ما قبل التاريخ باسمها ذي الدلالة الغريبة تعمل على كتابة دون نصوص ، أطول فصول التاريخ البشري حيث كان تاريخ اقتصادي يولد... كانت جغرافيا بشرية تولد⁶، انه استبعاد لفترة ما قبل التاريخ بسبب غياب النصوص المكتوبة واستبعاد للتخصصات التي تعتمد مصادر غير نصية .

ولكشف زيف الوثائق الرسمية يجب الكشف عن تناقضاتها الداخلية وتحليل ما بين السطور للكشف عن المحذوف أو المسكوت عنه أو البحث عن مصادر مناقضة لها من أغاني شعبية تكشف الحقائق، لذلك أصبح تجاوز محدودية هذه المصادر بتوسيعها نحو مصادر جديدة كالمصادر المادية والتاريخ الشفوي والمصادر البصرية وهنا تصبح مهمة المؤرخ ليس تكديس الوثائق بل كشف زيفها واليات إنتاجها

3. التطور التاريخي لمدرسة الحوليات: من التأسيس إلى الأجيال الثلاثة

بعد هذا التحليل النقدي الذي وجهته مدرسة الحوليات للنموذج التاريخي التقليدي، يبرز التساؤل حول المسار التطوري الذي سلكته هذه المدرسة نفسها في بناء مشروعها البديل لقد شكّلت الحوليات منذ تأسيسها عام 1929 كياناً فكرياً ديناميكياً تطور عبر مراحل متعاقبة يمكن تتبعها من خلال ثلاثة أجيال رئيسية، كل جيل منها مثل مرحلة نوعية في بلورة المشروع الحوليّاتي مع الاحتفاظ بروحه النقدية التأسيسية.

يمثل الجيل التأسيسي (1929-1945) بقيادة لوسيان فيفر ومارك بلوخ لحظة الانطلاق الفعلي للمشروع الحوليّاتي تميزت هذه المرحلة بتأسيس مجلة "حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي" عام 1929، التي شكلت منصة نقدية وجدلية ضد التاريخ التقليدي ركز هذا الجيل على نزع القداسة عن التاريخ السياسي السردى عبر تفكيك مركزية الحدث، ودعا إلى "تاريخ مشكلاتي" يطرح أسئلة جديدة على الماضي بدلاً من الاكتفاء بالسرد التسلسلي كما أكد على ضرورة تكامل التاريخ مع العلوم الاجتماعية الناشئة آنذاك، خاصة الجغرافيا البشرية والاقتصاد وعلم الاجتماع، وسعى إلى توسيع نطاق المصادر التاريخية لتحرير الكتابة التاريخية من احتكار الوثائق الرسمية والنخبوية.

شهد منتصف القرن العشرين بروز الجيل الثاني بقيادة فرنان بروديل، الذي قاد تحولاً إبستمولوجياً أكثر عمقاً في المشروع الحوليّاتي تميزت هذه المرحلة ببلورة مفهوم "الزمن الطويل" (La longue durée) كإطار تحليلي مركزي وأداة منهجية ثورية، حيث قسم بروديل الزمن التاريخي إلى مستويات ثلاثية متداخلة: الزمن الطويل (الجيولوجي-المناخي-الجغرافي)، الزمن المتوسط (الاقتصادي-الاجتماعي-الديموغرافي)، والزمن

القصير (الحديثي-السياسي). مثل هذا التقسيم تحولاً جوهرياً من "تاريخ الأحداث" إلى "تاريخ البنى" المادية العميقة، مع تطوير أدوات المنهج الكمي والتحليل الإحصائي السلسلي لدراسة الظواهر التاريخية طويلة الأمد أعاد بروديل تعريف مهنة المؤرخ من مجرد "راوي للأحداث" إلى "محلل للبنى" العميقة المتحركة في المسارات التاريخية.

مع مطلع السبعينيات برز الجيل الثالث الذي قاده جاك لوغوف وإيمانويل لوروا لادوري وجورج دوبوي وآخرون، حيث انتقل التركيز إلى أبعاد جديدة في البحث التاريخي تميزت هذه المرحلة بالاهتمام بتاريخ العقلية والذهنيات الجمعية والتمثيلات الاجتماعية، مع تركيز خاص على تاريخ الثقافة المادية والممارسات اليومية والحياة العادية اكتشف هذا الجيل ما كان "لامفكراً فيه" تاريخياً، مثل موضوعات الطفولة والموت والجسد والعواطف والجنسانية، مما وسع دائرة المواضيع التاريخية بشكل غير مسبوق تعمق الحوار مع الأنثروبولوجيا التاريخية وعلم النفس الثقافي، وتم تطوير أدوات تحليل الخطاب والرميزات والأدلة المادية والأيقونية كما أعطى هذا الجيل صوتاً للمهمشين والمسكوت عنهم في الرواية التاريخية التقليدية، من فلاحين ونساء وحرفيين، محققاً بذلك أحد أهداف المدرسة التأسيسية المتمثلة في كتابة "تاريخ الجميع".

يشكل هذا التطور التراكمي عبر الأجيال الثلاثة نموذجاً للتراكم المعرفي الذي لا يمثل قطائع بل إضافات نوعية، حيث احتفظ كل جيل بإنجازات سابقه وأضاف عليها أبعاداً جديدة يمثل هذا المسار التطوري الإطار المرجعي الذي ستفهم من خلاله الأدوات المنهجية للحوليات، والتي ستحلل في القسم التالي باعتبارها تجسيداً عملياً لهذا التراكم المعرفي والمنهجي المتدرج.

يتميز مفهوم البنى في فكر مدرسة الحوليات عن المفهوم البنيوي الصارم في العلوم الاجتماعية الأخرى بعدم قفله على ذاتيته المنطقية أو انفصاله عن الحركة التاريخية. ففي حين تبحث البنيوية اللسانية أو الأنثروبولوجية (كما عند سوسور أو ليفي شتراوس) عن أنساق لاتاريخية وثابتة تنطبق على كل الظواهر البشرية، تنظر الحوليات إلى البنى ككائنات تاريخية بطيئة التغير، تخضع لتحولات زمنية وإن امتدت لقرون. كما أن البنى في المنظور الحوليائي ليست متجاوزة للواقع المادي والذهني للمجتمعات، بل هي تنبثق منه وتتفاعل معه، وتتعدد مستوياتها بين البنى الجغرافية – المناخية العميقة، والبنى الاقتصادية – الاجتماعية المتوسطة المدى، والبنى الذهنية – الثقافية طويلة الأجل وبهذا تظل البنى عند الحوليين خاضعة لمنطق التراكم التاريخي والسياق المجتمعي، دون أن تتحول إلى قوانين مطلقة أو نماذج

مجردة، وهو ما يجعلها أداة تحليلية مرنة قادرة على استيعاب تعقيد الظاهرة التاريخية دون إخضاعها لإطار حتمي صارم.

4.الأدوات المنهجية لمدرسة الحوليات:من النقد النظري إلى التطبيق العملي

بعد بيان حدود الكتابة التاريخية التقليدية ونقد أدواتها وكشف تحيز مصادرها وزيف معارفها قدمت مدرسة الحوليات أدوات منهجية مثلت ثورة إبستمولوجية لبناء تاريخ جديد وهذا الانتقال من محدودية التاريخ التقليدي ونقده إلى بناء أدوات منهجية جديدة هو الانعطاف الإبستمولوجي الذي قادته مدرسة الحوليات انه انتقال من نقد الزمن الخطي إلى مفهوم الزمن المتعدد أو الطويل ومن كشف تحيز الوثائق إلى توسيع مفهوم الوثيقة التاريخية وتعدد المصادر ومن تفكيك مركزية الحدث السياسي إلى مفهوم التاريخ الكلي

1.4 مفهوم الزمن الطويل:

مفهوم الزمن الطويل *La longue durée* الذي طبقه بروديل هو أهم الأدوات المنهجية لمدرسة الحوليات لأنه سمح بدراسة البنى العميقة ذات التغير البطيء، لأن الزمن المناسب لدراسة ظاهرة معينة يتعلق بطبيعتها لذلك قسم بروديل الزمن إلى ثلاث مستويات

الزمن الطويل: يمتد الزمن الطويل إلى آلاف السنين أو قرون يناسب هذا المستوى الزمني الظواهر ذات الطبيعة الجغرافية والمناخية والذهنية والثقافية وكل الظواهر بطيئة التشكل كالتغيرات المناخية و البنى العقائدية.

الزمن المتوسط: يمتد الزمن المتوسط إلى عقود أو قرون وهذا يتناسب مع الظواهر الاقتصادية والاجتماعية و الديموغرافية كتطور الأسعار.

الزمن القصير: يمتد إلى سنوات أو أيام وهذا هو مستوى دراسة لأحداث السياسية والعسكرية والفردية كالمعارك وسير الشخصيات والثورات والمعاهدات.

إن التاريخ التقليدي يركز على الأحداث السطحية القصيرة المدى، لكن "يرتبط مفهوم الزمن الطويل هذا ارتباطا شديدا بمفهوم آخر هو "البنية"، معنى ذلك، أن الزمن الطويل هو تاريخ بنايات مادية وذهنية ضاربة في أعماق الماضي ومستعصية على التغير"⁷ التي تتحكم في تشكيل المجتمع معتمدا عدة أبعاد أساسية كالبعد الجغرافي ودور البيئة والطبيعة في تشكيل مسارات المجتمع ، والبعد الاقتصادي وتأثيره طويل الأمد في تكوين الثورات ليس كأحداث وإنما كتشكيل فكر ثوري ويركز أيضا على البعد الذهني وتشكل العقلية والأنظمة الفكرية وتحولها العميق في الأمد الطويل، وبهذا أصبح الزمن الطويل أداة منهجية مهمة فجاك

لوعوف يؤكد في دراسته لتاريخ أوروبا انه "يجب التنبيه إلى مسألة أساسية، وهي أن تاريخ أوروبا يقتضي من المؤرخ... التموضع في إطار ما يعرف بالأمد الطويل"⁸

إن اعتماد التاريخ على الزمن الطويل يساهم في الفهم العميق لتطور المجتمعات البشرية بإعادة الاعتبار للعوامل المادية الجغرافية والاقتصادية في تفسير تطور المجتمعات عبر التاريخ، نتج مفهوم الزمن الطويل في التاريخ بعد إلغاء الحدود بينه وبين العلوم الاجتماعية فأصبح التاريخ يدرس المجتمع بالتفسير البنيوي بدلا من كتابة تاريخ الأفراد والنخب .

تتمثل منهجية البحث التاريخي المعتمد على الزمن الطويل في اعتماد مصادر معينة كالإحصاءات طويلة المدى والخرائط التاريخية والسجلات المناخية والاقتصادية والمقارنة من خلالها بين الحضارات .

رغم إن هناك صعوبة في تطبيق التاريخ طويل الزمن على المجتمعات القليلة المصادر، مع إهماله لدور الأفراد والتركيز على بنيات المجتمع كحتمية مفروضة، نجد أن هناك عدة تطبيقات عملية لمفهوم الزمن الطويل ابتداء من تطبيق بروديل في دراسته للبحر المتوسط ودراسة لوروا لادوري لتاريخ المناخ والزراعة في لانغدوك.

لقد طبق فرناند بروديل الزمن الطويل في كتابه عن الحوض المتوسطي والعالم المتوسطي في عصر فيليب الثاني، رأى فيه أن التاريخ ليس فقط الأحداث الظاهرة بل البنى العميقة الجغرافية والاقتصادية فقسم التاريخ إلى ثلاث طبقات زمنية "صحيح أن هذه المستويات من الظواهر كانت تدرس بصورة متميزة، وكلا على حدة. ولكن الدراسة، كما يدعو لها بروديل، يجب أن تكشف عن حقل التقاطع والتمفصل بينهما"⁹ درس البنى الجغرافية على المدى الطويل من تضاريس وجبال و المناخ والزراعة والملاحة، طبقها بروديل على تأثير جبال الأطلس على الحياة البشرية في البحر المتوسط، ودرس البنى الاقتصادية على المدى الزمني المتوسط من طرق التجارة وطرق التسويق في المنطقة كدراسة تجارة القمح بين صقلية وشمال إفريقيا، وأيضا على الزمن القصير درس العلاقات الثقافية والحضارية من تواصل وتبادل ثقافي وهجرات كدراسته للانتشار للتقنيات البحرية في الحوض المتوسط بهذه الدراسة قدم تغيير للتاريخ من رواية الأحداث إلى علم يدرس بنيات المجتمعات، إن "التاريخ الجغرافي يتحكم ويحدد ويؤسس الأفق الذي لا يمكن تجاوزه، فهو لا يسمح بالانحباس في مستوى من مستويات الواقع الإنساني وهو يشمل في نفس الوقت الظواهر ذات الطبيعة المناخية والأفعال الثقافية. التاريخ الجغرافي يتطلع كل شيء ويسمح بتحقيق ذلك التاريخ الشمولي"¹⁰ واثبت بروديل أن البيئة والجغرافيا تصنع التاريخ أكثر من القرارات السياسية لأن حضارة الحوض المتوسط استمرت رغم كل التغييرات السياسية .

طبق أيضا إيمانويل لادوري الزمن الطويل في كتابه " تاريخ المناخ منذ عام 1000 " ، الذي جمع فيه بين العلوم الطبيعية والتاريخ والجغرافيا ، درس المناخ باعتباره التأثير الطويل الأمد لكل المجتمعات لذلك قسم لادوري الزمن إلى ثلاث مستويات الزمن الطويل جدا (1000-1850) حيث حدد الدورات المناخية الكبرى في القرن 14 من خلال استخدام بيانات علمية كعينات الجليد والأشجار ، والزمن الطويل الذي يمتد قرون وفيه ربط المناخ بالفلاحة من خلال يوميات الفلاحين وسجلات المحاصيل ، والزمن المتوسط الذي يمتد لعقود فقط حلل من خلاله المشكلات الديموغرافية المتعلقة بأسعار المحاصيل معتمدا على تقارير المجاعات ، ربط لادوري بين المناخ ودرس العبء الرباعي المناخ، الطاعون، المجاعة ، الحروب خلال القرن 14، "فأثار تاريخ المناخ تفيد فعلا تعاقب المجاعات الزمنية وربما أيضا تعاقب الأوبئة"¹¹، وقد وضع أيضا تحليلا لتأثير العصر الجليدي الصغير على زراعة الكروم في فرنسا، كما انه ربط بين المناخ والثورات كتأثير المناخ على أحداث 1789 في فرنسا.

لقد قام لادوري بإسهامات ابستمولوجية في الكتابة التاريخية تمثلت في إدخال بيانات العلوم الطبيعية في وثائق المؤرخ، محاولة تقديم تفسيرات وتحليلات علمية للتحويلات التاريخية، إن "استراتيجيا مؤرخ المناخ تقضي بان يكون في الخط الأول مع علماء الطبيعة ، لينشأ تعاون بين التخصصات"¹²، فتحول معه المؤرخ إلى عالم بدلا من مجرد راو يسرد الأحداث ويصفها بل ادخل البعد الكمي الطبيعي على الدراسات التاريخية .

لقد مثلت دراساتي بروديل و لادوري قمة تطور مفهوم الزمن الطويل، ثم تطور مع جاك لوغوف ليشمل البنى الثقافية حيث تحولت الكتابة التاريخية مع الزمن الطويل من السرد إلى علم يحلل البنى. لقد ارتبط مفهوم "الزمن الطويل" عضوياً بمفهوم "البنى" كمستوى تحليلي جديد، حيث تطور هذا المفهوم عبر أجيال الحوليات الثلاثة. ففي الجيل التأسيسي، تمثلت البنى في الإطارات الاجتماعية والاقتصادية الطويلة الأمد، بينما أعطى بروديل للبنى المادية (الجغرافية، المناخية، الجيولوجية) أولوية تحليلية في إطار الزمن الطويل أما الجيل الثالث فوسع المفهوم ليشمل "البنى الذهنية" والتمثيلات الثقافية العميقة. هذه التعددية في مستويات البنى (المادية، الاجتماعية، الذهنية) شكلت نسيجاً تحليلياً مركباً مكّن الحوليات من الانتقال من التاريخ الحداثي إلى التاريخ البنوي

2.4 التاريخ الشامل:

لقد دعت مدرسة الحوليات إلى تاريخ كلي، رفضت تقسيم التاريخ إلى عدة تخصصات ودعت إلى التكامل بين المستويات التاريخية السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، عبر الزمن الطويل كما حدده

بروديل "فالمؤرخ في رأيه هو اقتصادي واثروبولوجي وديمغرافي وعالم نفس، والسني والتاريخ هو أكثر العلوم انفتاحا، وأكثر حاجة لأن يتغذى من العلوم الإنسانية الأخرى" ⁷ فالمجتمع نسق متكامل تتأثر عناصره مع بعضها، يشمل التاريخ الكلي التحليل الاقتصادي وأدواته كالإحصاء والتحليل الكمي، ويشمل الاجتماعي والثقافي من تحليل بنيات وعلاقات باستخدام تحليل الخطاب و الانثروبولوجيا .

لقد حاول جورج دوبي تطبيق مفهوم التاريخ الشامل على المجتمع الفيودالي في ماكون حيث كشف التأثير بين الاقتصاد وروابط المجتمع كما كشف كيف شكل رأس المال الرمزي الهوية الإقطاعية , وأكد انه من المستحيل فهم المجتمع الفيودالي بعيدا عن البنى الذهنية, لذلك درس جورج دوبي النظام الاقتصادي الزراعي وكيفية استغلال الأراضي والإنتاج وقام بتحليل العلاقة بين الفلاحين والإقطاعيين كما درس كل تمثلاتهم عن السلطة وتحولاتها , وهذه دراسة شاملة للمجتمع الفيودالي على جميع المستويات لاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية .

نجد أيضا أن مارسيل ديتيان قدم دراسة طبق فيها مفهوم التاريخ الكلي من خلال دراسته للبنى الذهنية في اليونان القديمة حيث مثلت دراسته تطويرا منهجيا مهما في تطبيق مفهوم التاريخ الكلي باستخدامه مقارنة اثروبولوجية تاريخية للأنظمة الفكرية وبين علاقتها مع التحولات الاجتماعية وتحليل هذه العلاقة من خلال الخطابات الأسطورية فتبع نشأة وولادة الأفكار الفلسفية بدون فصلها عن سياقها بل كنتاج لتفاعلات اجتماعية ثقافية سياسية دينية كنسق واحد مستخدما التاريخ الكلي التي عبرت عنه مدرسة الحوليات في مشروعها .

لقد أفادت مدرسة الحوليات ابستمولوجيا الكتابة التاريخية من خلال مفهوم التاريخ الشامل بتجاوز الثنائيات التقليدية التي تفصل بين الفكر والمادة و بين الثقافة والاقتصاد وأصبح تفسير التاريخ يشمل كل التأثيرات المادية أو الفكرية مع إعادة الاعتبار للناس المهملين في المجتمع و تقديم تفسيرات أكثر تركيبا للتحولات الاجتماعية والتاريخية رغم حدود تطبيق المفهوم "تاريخ كلي" لعدم استطاعة الإحاطة بالكل أو الوقوع في السطحية والبساطة وصعوبة التوفيق بين دقة التخصص ومفهوم الشمولية, لكن بقي التاريخ الكلي الشامل طموح مدرسة الحوليات في تقديم تفسير شامل للمجتمعات من خلال دراسة مختلف المستويات وتفاعلها , وتم تطبيقه في العديد من الدراسات ليس كتاريخ ذو شمولية مطلقة بل كمنهج يقدم دراسة متعددة المستويات والجوانب من خلال تفاعل بين التخصصات .

3.4 المنهج الكمي في التاريخ: تحليل الأدوات والتطبيقات

إن دعوة مدرسة الحوليات إلى تحول التاريخ من السرد إلى التحليل استلزم استخدام عدة مناهج تحليلية دقيقة كالمناهج الكمي الذي يعتمد على الإحصاء والقياس لأن التغيرات البنيوية البطيئة يجب دراستها بأدوات رياضية إحصائية.

إن المصادر النوعية الوصفية التي تنتجها السلطة لا تعبر عن التطور الحقيقي البطيء الذي تشكل عبر الزمن الطويل ,لهذا استخدمت مدرسة الحوليات الأدوات والتقنيات الكمية لتحليل السلاسل الزمنية لرصد التغيرات الاقتصادية استنادا على عدة مصادر كدفاتر التجار وأرشفات الأسواق , والإحصاء الديموغرافي التاريخي لفهم التحولات السكانية من خلال سجلات الزواج والوفيات إلى جانب دراسة سجلات العقود لفهم علاقات القرابة وتبادل المصالح لفهم المجتمعات التقليدية من خلال تحليل البيانات بطريقة كمية,"ومن المؤكد أن أعظم ابتكار و الأكثر جدلا في المنهج زمن الجيل الأخير تجسد في ظهور المنهج الكمي وانتشاره"¹⁴.

لقد مثلت مدرسة كامبريدج للديموغرافيا التاريخية تطبيقا للمنهج الكمي حيث بينت كيف شكلت التحولات الديموغرافية والأنماط السكانية أساسا للثورة الصناعية من خلال تحليل سجلات الأبرشيات الانجليزية, بالإضافة إلى دراسة بيير شونيو التي طبقت المنهج الكمي أيضا على الحركة العمالية في فرنسا في القرن التاسع عشر كظاهرة متعددة الأبعاد حيث جمعت الدراسة بين التحليل الإحصائي لأجور العمال وظروفهم المعيشية وبين العمل النقابية.

لقد أسهمت التحليلات الكمية في إثراء الإسهامات الاستملوجية التاريخية لأنها أدوات مهمة في التأكد من التفسيرات والفرضيات التاريخية من خلال تحليل البيانات ومقارنتها لكشف العلاقات بين الظواهر,رغم أن هناك بعض العوائق في تطبيق المنهج الكمي على مجتمعات الماضي من بينها عدم موثوقية المعلومات و مشكلة التوفيق بين العمق الرياضي والكمي مع المادة التاريخية والسرد التاريخي, انتشرت المناهج الكمية حيث أن هناك تاريخ سياسي جديد يقوم المشتغلين به بإحصاء الأصوات¹⁵, كما أن المنهج الكمي مثل إضافة استملوجية للكتابة التاريخية, حيث مثلت تطبيقا لدعوة الحوليات والمنهجية الجديدة التي تسعى لكشف البنى في الزمن الطويل الأمد وتقديم تفسيرات منهجية لتطور المجتمعات وتحولها .

لم تكن أدوات الحوليات المنهجية مجرد خطوات تقنية محايدة للبحوث التاريخية بل كانت تجسيدا لانعطافها وثورتها مع التاريخ التقليدي فالزمن الطويل لم يكن مجرد تقسيم للزمن بل انتقال من التاريخ

السردى إلى التاريخ كعلم للبنى والتاريخ الشامل ليس مجرد دراسة كلية بل هو تأكيد على ترابط المستويات في دراسة المجتمع ورفض لعزل التخصصات إذن أدوات الحوليات المنهجية هي التطبيق العملي للرفض النظري للتاريخ التقليدي وتجسيد للرؤية التاريخية الجديدة .

5. نماذج تطبيقية في التاريخ الحولياتي: كيف طُبِّقَت أدوات الحوليات؟

بعد دراسة أدوات مدرسة الحوليات المنهجية الآن نبين كيف طبقت هذه التقنيات في نماذج بحثية، فقيمة المناهج الجديدة لا تقاس بدقتها النظرية بل بكشفها البنى التاريخية التي لم يستطع التاريخ التقليدي تقديم تفسيرات حقيقية لها ، لهذا قدم أتباع مدرسة الحوليات مشاريع بحثية طبقوا فيها الأدوات المنهجية الجديدة ، سنتبع هذه التطبيقات مع ثلاثة نماذج بحثية كل واحد منها في حقل من الحقول البحثية، النماذج هي: نموذج ارنست لابروس التطبيق الاقتصادي ونموذج اندريه بورغير التطبيق الاجتماعي ونموذج فيليب اربيس التطبيق الذهني، حيث كشفت هذه التطبيقات أن البنى الخفية هي التي تشكل التطورات الحقيقية للمجتمعات في التاريخ وليس الأحداث السطحية.

1.5 التطبيقات الاقتصادية: نموذج ارنست لابروس

يعتبر ارنست لابروس من بين الرواد الذين طبقوا المنهج الكمي على التاريخ الاقتصادي حيث قامت منهجيته الثورية على فهم التحولات الاقتصادية طويلة الأمد بجمع المصادر والبيانات الإحصائية مثل جمعه لسجلات 32 سوق فرنسي من أجل تحليل أسعار الحبوب واستخدام لابروس التقنيات الإحصائية والتحليلية كحساب المتوسطات لحركة الاتجاهات طويلة الأمد وحساب الانحراف المعياري لتحديد شدة التقلبات السوقية مع دراسة التحولات الهيكلية طويلة الأمد، كما ربط لابروس بين التحولات الاقتصادية وتأثيرها على المجتمع من خلال العلاقة بين ارتفاع أسعار القمح والاضطرابات الاجتماعية وتأثير المجاعات على النمو الديموغرافي وقدم لابروس تفسير لارتباط الاضطرابات الاجتماعية بالاقتصاد والفلاحة من خلال تحليله للآزمات الاجتماعية فلاحظ أنها تنتقل من الأرياف إلى المدن وليس العكس، كما ربط أيضا دور الآزمات الاقتصادية الاجتماعية في تغيير الأنظمة السياسية فالآزمات تضعف شرعية السلطة القديمة .

لقد أحدث لابروس أثرا استمولوجيا في تحول التفسير التاريخي حيث حول تفسير الثورة الفرنسية من حدث سياسي إلى عوامل اقتصادية بنوية أدى تراكمها إلى أزمة اقتصادية هي التي أدت حتما إلى الثورة الفرنسية بعيدا عن القرارات الفردية وأكد لابروس هذا بنموذج علمي قائم على تحليل كمي بين فيه ارتباط الإنتاج الزراعي والوضع الاقتصادي بالأوضاع المعيشية والاجتماعية ، أصبحت منهجية لابروس في دراسة التاريخ الاقتصادي مرجعا في تطبيق المنهج الكمي لكل الدراسات التي بعدها لأنها دراسة حولت

التاريخ الاقتصادي من الوصف إلى التحليل الكمي للبيانات وكشفت البنيات التي تحكم التحولات الاقتصادية وبينت قدرة المنهج الكمي في تقديم تفسيرات للتحولات البطيئة والتي تتحكم في مسارات الاقتصاد والاجتماع.

2.5 التطبيقات الاجتماعية: نموذج أندريه بورغوير

يعتبر نموذج أندريه بورغوير في تطبيق المنهج الكمي مميزا حيث جمع بين تاريخ العقلية والتاريخ الديموغرافي بين الكمي والنوعي لذلك تعتبر دراسته أنها تقوم على منهجية متكاملة، جمع فيها البيانات الديموغرافية كسجلات التعميد والزواج والوفاة في الأبرشيات الفرنسية مع تتبع بيانات الإنجاب والوفيات عبر مختلف الأجيال "إن الحقبة المعاصرة تكون بالنسبة إلى الديموغرافيا التاريخية عملية جدا ومعروفة ، فالدولة المدنية والإحصاء ذو الوتيرة المنتظمة يقدمان توثيقا غير محدود من الناحية العملية"¹⁶ كما قام بالتحليل النوعي للخطابات كتحليل النصوص الدينية والأدبية والتعليمية وتحليل الخطابات القانونية حول العائلة مع تحليل المراسلات الشخصية والمذكرات العائلية أيضا، فكشف عن تحولات البني العائلية وتغير أنظمة الزواج وتطور مفهوم العائلة من خلال تغيرات البني الذهنية والتمثلات الجمعية كتحول مفهوم الحب والزواج والتأثيرات الدينية والثقافية.

لقد كشف أندريه بورغوير الآليات التي تعيد إنتاج المجتمع كدور المؤسسات في نشر قيم معينة مثل تأثير المدرسة والكنيسة والدولة في نشر نماذج أسرية جديدة، وهكذا قدم تجديدا في الدراسات التاريخية وهو تطوير لتاريخ البني الذهنية وإدخال البعد الديموغرافي، "فالديموغرافيا في الفترة التي سبقت التصنيع والإحصاء استفادت من التدريب الذي قدمته مدرسة تاريخية في أوج تجديدها، والتي بانطلاقها من الدراسة التسلسلية للأسعار، اضطرت إلى نقل إشكالياتها الإنتاجية إلى السكان وإلى نقل إشكالية السكان إلى المجتمع"¹⁷ وهكذا قد ساهم في تطوير الأنثروبولوجيا التاريخية ومجال تاريخ العائلة ملهما الجيل الجديد من المؤرخين باعتباره تطبيقا للرؤية التي أتت بها مدرسة الحوليات كنموذج لتاريخ الشامل حيث ربط بين التغيرات الاجتماعية والتمثلات الذهنية وربط بين التغيرات الديموغرافية والتغيرات الثقافية وهكذا قدم تفسيرات شمولية للمجتمعات وكشف تعقيداتها الخفية بمنهجية متكاملة .

3.5 التطبيقات الذهنية: نموذج فيليب اربيس

فيليب اربيس يعتبر ابرز رواد تاريخ العقلية في مدرسة الحوليات، "إن المؤرخين يتحدثون عن"بنية ذهنية"، وعن "رؤية الكون" للتعبير عن الخطوط المتناسقة والدقيقة لكل ما هو نفساني وفرض نفسه على المعاصرين من دون أن يعلموا بذلك وربما يشعر ناس اليوم بالحاجة إلى إبراز مشاعر الماضي الدفينة في

ذاكرة جماعية عميقة ووضعها على سطح الضمير"¹⁸، يتمثل تميز فيليب اربيس المنهجي في تاريخ الذهنيات في قدرته على جعل مواضيع طبيعية كالطفولة والموت إلى مواضيع تاريخية وبهذا احدث تغيرا هاما في التمثلات الجمعية، كما انه استخدم المصادر الغير تقليدية وتحليلها بمنهجية مبتكرة تتمثل في قراءة ما بين السطور وتحليل الرموز والإيحاءات كدراسة اللوحات الفنية والمنحوتات وتحليل الإيماءات التي تحتويها لأنها تعكس التمثلات الاجتماعية، فالأدب التعليمي والنصوص الدينية والمذكرات الشخصية كلها مصادر لقراءة ما بين السطور تمكن في فهم القيم السائدة وتعبير عن الحياة اليومية، لقد طبق هذه المنهجية على تاريخ الطفولة وتاريخ الموت.

لقد درس فيليب اربيس تاريخ الطفولة وتتبع التحول في مفهومه من خلال اللوحات الفنية والأدب التعليمي فوجد أن مفهوم الطفولة تغير، فتصوير الأطفال في اللوحات كان كأنهم رجال صغار ثم أصبح يظهر ملامح البراءة كما انه ظهر أدب تربوي موجه للأطفال، وأصبحت العائلة الحديثة تركز على الطفل. كما تتبع فيليب اربيس تحولات تاريخ تمثلات الموت حيث تحول من الموت في الفراش إلى الموت في المستشفى خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين بسبب التطورات الطبية التي غيرت النظرة إلى الحياة والموت كما تغيرت طقوس الجنازات والحداد بسبب تأثير التحولات الديموغرافية، "وهو ما يؤكد فيليب أرياس بقوة، وهو واحد من مكتشفي هذا التاريخ، سواء في ما يتعلق بالطفل والعائلة أو بالموت، وهو أن هذا التاريخ يهتم بهذه التطورات السرية عبر أمد بالغ الطول، وهي تطورات لاوعية لان الناس يعيشونها، وبها لا يشعرون"¹⁹.

وبهذا وسع اربيس المواضيع التاريخية حيث شملت العواطف والمشاعر وادخل مواضيع الحياة اليومية في حقل التاريخ وانفتح على الانثروبولوجيا، كما قدم أدوات منهجية جديدة لدراسة المواضيع المهمشة و المسكوت عنه مع تقديم نموذج ناجح لدراسة اللا مفكر فيه وإمكانية كونه موضوعا تاريخيا ونموذجا لتاريخ شمولي جمع بين البنى الذهنية والممارسات اليومية والثقافية والاجتماعية بطريقة تحليل الرمزيات الفنية والذهنية.

لقد مثلت هذه التطبيقات للمنهج الحوليائي دليلا على نجاحه ميدانيا وليس فقط نظريا بل حولت فعلا التاريخ من وصف الأحداث وسرد سير الملوك والعظماء إلى كشف البنى العميقة من خلال النماذج الثلاثة التي حولت الاقتصاد إلى بنية فاعلة في التاريخ والاجتماع كمؤثر في التحولات التاريخية والذهنيات إلى مواضيع تاريخية قابلة للدراسة .

6. إبستمولوجيا الكتابة التاريخية بعد الانعطاف: التغير في طبيعة المعرفة ودور المؤرخ

إذا كنا قد حللنا الأدوات المنهجية التي أنتجت مدرسة الحوليات وتجلياتها في عدة نماذج تطبيقية فهذا اجبنا على السؤال ماذا أنتجت مدرسة الحوليات؟ فإن السؤال الحتمي الذي يطرح بعدها هو ما هي الآثار الاستمولوجية لهذه الممارسات التطبيقية على المعرفة التاريخية؟ أو ما هي طبيعة المعرفة التاريخية التي أنتجت هذه التطبيقات.

1.6 طبيعة المعرفة من الحقيقة الواحدة إلى تعدد الحقائق

بما أن الانعطاف الذي قامت به مدرسة الحوليات ليس تصحيحا منهجيا فقط بل هو ثورة معرفية للتاريخ كله حيث قلبت المفاهيم الأساسية في فهم الماضي و يعتبر التحول في طبيعة المعرفة التاريخية من وحدة الحقيقة إلى تعددها أساس هذا الانعطاف.

لقد كان النموذج التقليدي يسعى إلى الحقيقة الواحدة فهي تعتبر وجود ماضي واحد وقع بالفعل موضوعي وعلى المؤرخ إعادة بناء حوادث الماضي من خلال تحليل الوثائق التاريخية تحليلا نقديا , فمؤرخو القرن التاسع عشر مثل ليوبولد فون رانكه دعوا للتأريخ للأحداث كما هي أي كما حدثت حقا باعتبار أن الحقائق التاريخية ممكن اكتشافها وواحدة ونهاية تكتشف بالاعتماد على الوثائق الرسمية بجمعها وإصدار حكم محايد وتعتبر مرآة تعكس الحقيقة كما حدثت في الواقع , "لكن الاعتقاد السائد بوجود حقائق تاريخية بشكل موضوعي ومستقل عن تأويل المؤرخ هو اعتقاد خاطئ ومناف للمنطق"²⁰.

لكن مدرسة الحوليات انتقدت النموذج التقليدي ودعت إلى نموذج تعددي للمعرفة التاريخية حيث لم يصبح هدف المؤرخ إعادة بناء الماضي بل بناء التاريخ , إن هذه التعددية بدأت من تعدد الزمن التاريخي مع بروديل حيث قسم الزمن إلى زمن طويل وزمن متوسط وزمن قصير, وتطبيق لابروس أكد أن زمن الأزمة الاقتصادية البطيء مختلف عن زمن الثورة السريع وهذا يبين أن وحدة الحقائق في التاريخ حلم قديم, حيث أصبح لكل ظاهرة تاريخية زمن مختلف ولم يبق تاريخ واحد بل تواريخ متعددة في أزمنة مختلفة .

أصبحت مصادر التاريخ أيضا متعددة ولم تعد تقتصر على الوثيقة الرسمية فقط بل انفتحت مع مدرسة الحوليات لتشمل وثائق العامة, بعد هذا الانفتاح أصبح للحقيقة أوجه مختلفة وأصبح على المؤرخ أن يصنع معنى للماضي مع تعدد الروايات وتناقضها أحيانا فرواية الملك في ووصف الحرب ليست كرواية يوميات الجنود وهنا تتعدد الحقائق التاريخية حسب تعدد مصادرها, فدراسات .

كما ساهم تاريخ العقليات في هذا التعدد فقد كشفت دراسة ذهنيات المجتمع أن التاريخ لا يبني فقط على الماديات بل يتعلق أيضا بكيف يدرك الناس عالمهم والحقيقة الثقافية التي تؤثر في المجتمع هنا نسبية ومتعددة.

بعد هذا التعدد الحتمي للمعرفة التاريخية بسبب الزمن المتعدد وانفتاح المصادر ودراسة العقلية حدث التحول الإبستمولوجي حيث أصبحت المعرفة التاريخية كبناء لحوادث الماضي وليس إعادة اكتشافها، فلم يصبح الوصول إلى الحقيقة المطلقة هدف للمؤرخ بل أصبح هدفه بناء متماسك للظاهرة التاريخية شرط أن يكون مقنعا ومدعوما بالأدلة وغير متناقض، مع فتح المجال أن تكون أي تفسيرات تاريخية أخرى مقبولة وممكنة.

وهنا الموضوعية لم تعد تعني التخلي عن الذات أو مطابقة الواقع بل فقط في عرض المنهج والأدلة وعدم تناقضها، المؤرخ لا يقدم المعرفة التاريخية إلى القارئ باعتبارها حقيقية، بل يقدمها متماسكة والتماسك هو خلوها من التناقض في العرض والتفسير²¹، مع افتراض وجود تفسيرات وزوايا نظر أخرى، وبهذا حولت مدرسة الحوليات سؤال البحث التاريخي من ماذا حدث؟ إلى كيف يمكن فهم ما حدث؟ فتغيرت طبيعة المعرفة التاريخية من سرد واحد سلطوي إلى تاريخ أكثر تواضعا وحوارا وأكثر غنى بالتفسيرات المتعددة التي يقيمها المؤرخون بتفاعلهم مع المصادر وتوجيه البحث بأسئلة نظرية.

2.6 دور المؤرخ من الرواية المحايدة إلى البناء النقدي

لقد كان دور المؤرخ في التاريخ التقليدي وصف الأحداث وروايتها كما هي بموضوعية وحياد وكان ينقل ما تقوله الوثائق بشفافية ولا يفسر ماذا حدث بل ينقله كصحفي بعيدا عن كل تحيزاته الذاتية ويخفي صوته ويترك الوثائق تتكلم عن نفسها، "وفقا للنموذج التقليدي، التاريخ موضوعي ومهمة المؤرخ أن يقدم "الحقيقة" لقرائه أو أن يحكي "ما حدث بالفعل" حسب عبارة رانكه²²، لكن دور المؤرخ في إنتاج المعرفة التاريخية مع مدرسة الحوليات تغير لم تعد أحداث الماضي قصة تنتظر من يحكمها، بل أصبح للمؤرخ دور نقد وبناء للتاريخ، فالمؤرخ يبدأ دوره من اختيار الموضوع وهذا الاختيار في حد ذاته ليسا حيادا بل يعكس اهتمامات عصر المؤرخ وأسئلته، فالتاريخ عند الحولياتيين يبدأ من سؤال يطرحه المؤرخ وليس بحدث، فالمؤرخ هو الذي يجمع شظايا الأرشيف ويربط بينها ليصنع قصة مكتملة، إن دراسات ارييس لمواضيع الموت والطفولة كشفت أن المؤرخ لا يجد الوثائق جاهزة بل يبحث عن مصادره الخاصة ليجيب عن الأسئلة النقدية التي طرحها ثم يبني نموذج التفسيري.

كما أن المؤرخ أصبح ناقدا يكشف آليات السلطة داخل الوثائق، لم يعد يسجل المنتصرين في الحروب كما هو مكتوب في الوثائق بل يفككها ويكتشف المسكوت عنه فيها والسلطة المتخفية وراءها كما يسأل عن غياب المهمشين.

لقد تغير الدور الإبستمولوجي للمؤرخ حيث تحول من محايد ناقل إلى مسؤول مفسر، فقد أصبح لا يمكن أن يكون المؤرخ محايدا بل أصبحت خلفياته وأسئلته جزء من الكتابة التاريخية عكس النموذج القديم "نعتبر اليوم هذا النموذج غير واقعي، فمهما كان نضالنا شاقا لتجنب انحيازات اللون، أو العرف، أو الطبقة، أو النوع، فإننا لا نقدر على تجنب النظر إلى الماضي من وجهة نظر معينة"²³، فأصبحت مسؤولية المؤرخ أكبر في فهمنا للتاريخ، وهذا غير مفهوم الموضوعية في التاريخ من عدم ظهور الذات في النصوص التاريخية إلى مفهوم التماسك المنهجي وعدم تناقض المؤرخ في بناء حجته، كما أن الأسئلة التي يطرحها المؤرخ تعبر عن اهتماماته وتوجهات عصره وبهذا يكون فهم الماضي انطلاقا من الحاضر وتفسير الأحداث بحوار بين الماضي والحاضر لفهم متكامل .

هناك تحديات منهجية ظهرت اثر هذه الثورة الابستمولوجية التي حدثت في الكتابة التاريخية ، لقد ظهرت إشكالية التفتيت حيث أصبح التاريخ قطعاً متناثرة في تخصصات عدة بعد انفتاحه الشديد على العلوم وظهور حقول بحث جديدة ومواضيع جديدة ، ان هذا التفتت يفقد التاريخ النظرة الشمولية التي دعى إليها رواد مدرسة الحوليات ، فيصبح من الصعب جمع كل التفسيرات من كل الجوانب والتخصصات لبناء فهم شامل فيصبح فهم الماضي مشتتا ومجزئا.

"في رأي مؤسسي الحوليات يجب الاحتياط من كل ما هو ميتافيزيقي وكل تفسير أحادي"²⁴ فالتعدد في كل الأسس الابستمولوجية في التاريخ وتغير مفهوم الموضوعية جعل كل تفسير تاريخي متماسك وغير متناقض مساو لأي تفسير آخر في الصحة، ومع الكتابة عن المهمشين والمغيبيين في التاريخ ظهر التعارض والتناقض في الروايات والوثائق بين السلطة والمهمشين وباختفاء معيار المطابقة للواقع من النموذج التاريخي الجديد أصبح هناك صعوبة في وضع معيار للتقييم ، و أصبح تفسير التاريخ نسبيا فالتعدد الكبير للتفسيرات يؤدي بالتاريخ إلى النسبية المفرطة، إذن النسبية الثقافية تنطبق على الكتابة التاريخية نفسها، إذ أن عقولنا لا تعكس الحقيقة بصورة مباشرة لذا انتقلنا من مثال "صوت التاريخ" إلى مثال "الاختلاف"²⁵.

إن هذه الإشكاليات والتحديات ليست نظرية بل كانت نتيجة لتطبيقات الأدوات المنهجية في نماذج تاريخية فالنجاح الكبير لهذه التطبيقات افرز بعض التداعيات على المعرفة التاريخية المعاصرة ، فتطبيق الزمن الطويل على الدراسات التاريخية أدى إلى تعدد الحقائق بتعدد أزمنتها ومع دراسة تاريخ العقلية لاحظ المؤرخ أن دوره تغير إلى البناء وطرح الأسئلة، أما إضافة وثائق المهمشين ورأيهم إلى دراسة التاريخ أدى إلى التعدد والتفتيت.

7. خاتمة:

بعد هذا التحليل يمكن أن نخلص في الخاتمة إلى أن مدرسة الحوليات لم تكن مجرد تجاوز منهجي للمناهج التقليدية بل غيرت مسار المعرفة التاريخية عبر انعطاف مثل قطيعة مع كل الأسس الاستمولوجية للنموذج التاريخي القديم، حيث نجحت في تغيير موضوع التاريخ من دراسة الأحداث السطحية إلى دراسة البنى الأعماق.

كما أكدت النتائج أن أهم إسهام لمدرسة الحوليات كان أدواتها المنهجية المبتكرة كمفهوم الزمن الطويل الذي ساهم في دراسة الظواهر التاريخية عبر طبقات زمنية مختلفة والتاريخ الشامل وتوسيع مفهوم الوثيقة التاريخية وتجاوز سلطة النخب على الكتابة التاريخية واحتكارها، ليصبح التاريخ يشمل يوميات الفلاحين وممارسات الحياة اليومية ليس فقط الإسهام النظري لكن قدمت نماذج تطبيقية ناجحة خاصة في حوار التخصصات وانفتاحها.

رغم هذا الإبداع المنهجي والنجاح التطبيقي لمنهج مدرسة الحوليات في الدراسات التاريخية إلى أنه واجه بعض التحديات والانتقادات المنهجية والإستمولوجية تمثلت في بعض الإشكاليات كإشكالية التفتت والنسبية في الحقائق التاريخية من التفسير الواحد إلى المتعدد .

رغم هذه التحديات إلا أن ارث مدرسة الحوليات في الكتابة التاريخية المعاصرة أصبح حيا في كل الدراسات الجادة ، وأصبحت ترشد كل مؤرخ لفهم جوانب الظاهرة الإنسانية في التاريخ وليس فقط الأحداث ليكون بحثا أكثر شمولية وأكثر علمية.

وبالنظر إلى الآثار المتعددة لهذا الانعطاف الإستمولوجي، يتجلى تأثيره الواضح على الكتابة التاريخية العربية المعاصرة، حيث أسهمت مقاربات الحوليات في إعادة تشكيل الأسئلة والمناهج في العديد من الدراسات التاريخية العربية. فقد تجلّى هذا التأثير في الانتقال من التاريخ السياسي السردى إلى الاهتمام بالبنى الاقتصادية والاجتماعية طويلة الأمد، وفي الاهتمام بتاريخ الفئات المهمشة والمسكوت عنها، كما في تبني أدوات منهجية كمية ونوعية مستلهمة من روح الحوليات. ورغم التحديات التي واجهت استيعاب هذا المنهج في السياق التاريخي العربي، خاصة نقص المصادر السلسلية وغلبة النمط السردى التقليدي، إلا أن إسهامات بارزة ظهرت في حقول التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للعالم العربي، وتاريخ الذهنيات والتمثيلات الثقافية، مما يدلّ على قدرة المنهج الحولياتي على إثراء البحث التاريخي العربي حين يُوظف بوعي بالخصوصية الحضارية والسياقات المحلية.

الهوامش

- 1- جاك لوغوف، التاريخ الجديد، تر: محمد الطاهر منصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007، ص87.
- 2- خالد طحطح، الكتابة التاريخية، دار توبقال للنشر، دار البيضاء، ط1، 2012، ص93.
- 3- الهادي التجمي، المدارس التاريخية الحديثة، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2013، ص190.
- 4- فرنان بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي، تر: مروان أبي سمرا، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1993، ص22.
- 5- Marc Bloch , apologie pour l'histoire ou métier d'historien, librairie Armand colin, paris, 2^e éd. 41, 1952, p
- 6- Lucien Febvre, Combats pour l'histoire, librairie Armand colin, paris, 1992, p18.
- 7- محمد حبيدة، المدارس التاريخية من المنهج إلى التنازع، دار الأمان، الرباط، 2018، ص93.
- 8- جاك لوغوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط، ص14.
- 9- وجيه كوثاني، تاريخ التأريخ اتجاهات- مدارس- مناهج، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط2، 2013، ص231.
- 10- فرانسوا دوس، التاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد، تر: محمد الطاهر منصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2009، ص204.
- 11- جاك لوغوف، بيار نورا، الاشتغال بالتاريخ مشكلات جديدة مقاربات جديدة موضوعات جديدة، تر: جمال شعيد، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، 2024، ص548.
- 12- المرجع نفسه .
- 13- وجيه كوثاني، مرجع سابق، ص216.
- 14- بيتر بوركي، نظرات جديدة على الكتابة التاريخية، تر: قاسم عبدو قاسم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2010، ص37.
- 15- المرجع نفسه.
- 16- جاك لوغوف، بيار نورا، مرجع سابق، ص344.
- 17- نفس المرجع، ص345.
- 18- جاك لوغوف، التاريخ الجديد، مرجع سابق، ص310.
- 19- نفس المرجع، ص161.
- 20- قيس ماضي فرو، المعرفة التاريخية في الغرب مقاربات فلسفية وعلمية وأدبية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، 2013، ص24 .
- 21- نفس المرجع، ص27.
- 22- بيتر بوركي، مرجع سابق، ص26.
- 23- نفس المرجع، ص27.
- 24- فرانسوا دوس، مرجع سابق، ص59.
- 25- بيتر بوركي، مرجع سابق، ص27.